

أبو الدرداء رضي الله عنه أول معهد للتربية والتعليم في الحضارة العربية الإسلامية

د. مُحَمَّد رضوان الدَّايَة*

(١)

بدأت حركة التعليم في الدولة العربية الإسلامية الناشئة منذ العهد النبوي. وكان نشر العلم، وأخذ الناس - وخصوصاً الجيل الجديد - بطلب العلم وإتقان القراءة والكتابة، والارتقاء إلى درجات متدرجة في ذلك مطلباً أساسياً في سياسة الدولة الجديدة. كان في الأغراض الأولى: تكوين جيلٍ متعلّمٍ مثقّف، قادر على صناعة دولةٍ جديدةٍ «عصرية» بالمعاني الكثيرة المناسبة لكلمة (عصرية) في ذلك الأفق التاريخي.

ومشهورٌ خبر غزوة بدر. فقد كان الرأي أن يؤخذ من أسرى المشركين الفداء. وكان فداء من يتقن القراءة والكتابة منهم أن يعلم الواحد منهم عشرةً من أبناء المسلمين القراءة والكتابة. واتسع شأن العلم بوجوهه المختلفة وشأن التعلّم منذ أيام العصر النبوي فالعصر الراشدي.

وقد ظهرت مجموعة من اختارهم النبي ﷺ لكتابة الوحي، عُرفوا بكتّاب

(* باحث في الأدب والتراث من سورية.

الوحي. وملاً أولئك المتعلمون ما تحتاج إليه الدولة آنذاك من العاملين في الكتابة الديوانية، وما يتعلّق بها؛ من الكتابة إلى ملوك العصر، وإلى الولاة والعمال والمصدّقين، وإلى من يحتاج التعامل معهم إلى وثائق مكتوبة، وعهود.... إلخ.

وانشغل الناس في العصر النبوي والراشدي - أكثر ما انشغلوا - بكتاب الله العظيم: نسخاً وحفظاً وفهماً وتفسيراً. وحملوا عن ابن عباس رضي الله عنه علماً كثيراً في تفسير القرآن الكريم^(١) ثم رويوا من الحديث النبوي. وشغلت اللغة وشواهد الشعر وغيره الحفّاظ والقراء والدارسين عامّة: وسهّل ابن عباس الرّبط بين تفسير آيات كتاب الله وإيراد الشواهد من أشعار العرب وأقوالهم: توضيحاً، وتصديقاً وتقريباً للمقاصد. وكان مبعوثو النبي ﷺ إلى البلاد الإسلامية الجديدة في الجزيرة العربية يؤدّون هذه المهمة من تعليم الإسلام والقضاء بين الناس، وتوضيح ما يحتاج الناس فيه إلى توضيح في كتاب الله تعالى.

وإذا وقفنا عند أحوال بلاد الشام وجدنا الحركة العلمية ناشطة منذ أيام الفتح الأولى. وهناك علوم طارئة جديدة، صار لا بدّ من نشرها وتقريبها إلى الناس وتغذيتهم بموادّها ومفرداتها. ذلك بأنّ انسياح حركة الفتوح، ودخول كثير من الناس من أهل بلاد الشام في الإسلام كان يقتضي أن تقدم «الخدمات»

(١) جمع السيوطي من أحاديث تفسير القرآن الكريم عدداً كبيراً (انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور)، وقال إنه اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة هم: الخلفاء الراشدون، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، وابن عباس، وابن مسعود. وكان ابن عباس رضي الله عنه أكثر الصحابة تفسيراً.... وهو يعدّ المؤسس الحقيقي لعلم التفسير واشتهر بأنه كان يرجع إلى أهل الكتاب في قصص الأنبياء، وأنه كان يعتمد على الشعر القديم (العربي) في تفسير بعض الألفاظ... انظر العصر الإسلامي - د. شوقي ضيف: ٢٨-٢٩.

العلمية لهم، فيما يخص هذا الجديد.

كانت بلاد الشام التي فُتحت حديثاً تعرفُ اللغة العربية وكان السكان المنتمون إلى الأصل العربي كثرة في مناطق كثيرة، وكانوا يعرفون العربية، ويُتقنونها؛ على أنه كان في البلاد من لا يتقنها، أو لا يعرفها جيداً (في المناطق البعيدة شمالاً وفي قاصية الجبال، مثلاً) ولا ننسى الغساسنة في المناطق الجنوبية نحو دمشق، وديار العرب في تدمر، وسلع (البتراء) وغيرها...

وصار في مهمة الدولة الفتية في بلاد الشام الدانية من الجزيرة العربية: (فلسطين والأردن)، والقاصية: (دمشق وحمص وما بعدها) أن تمكّن للعربية، وترسخها، وتكون البديل عن اللغة العربية السريانية الشائعة في مواضع كثيرة (في الشام والعراق).

(٢)

ونشير هنا إلى التقدير العام الذي يؤدي إلى أن الفاتحين المسلمين المُشبعين بفكر الدعوة، والمزودين بحفظ القرآن الكريم أو بقسم منه، السامعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه كانوا بأنفسهم طلائع تعليم المؤمنين الجدد ما يلزمهم من فرائض الدين، ومن نصوص القرآن، وغير ذلك، ويقدمون لمن يعرف العربية منهم وهم الأكثرية، ما يحتاجون إليه من إيضاح المفردات الجديدة كالصلاة والصوم والحجّ والنفق والجهاد والتقوى والقيامة.. إلخ ويلقنون العربية من لا يعرفها بالممارسة والتحفيز والمتابعة.

ثم نقول: تبدأ أخبار التعليم القاصد (المطلوب من الوالي برسالة منه إلى الخليفة في المدينة) مع أول والٍ تولّى حكم دمشق: وهو الأمير يزيد بن أبي

سُفيان (صخر) رضي الله عنهما، أخو أمّ المؤمنين أمّ حبيبة رضي الله عنها. قال الذهبي وهو يلخص ترجمته^(٢):

«كان من العقلاء الألباء^(٣) والشجعان المذكورين. أسلم يوم الفتح، وحسّن إسلامه، وشهد حنيناً، فقيل: إن النبي ﷺ أعطاه من غنائم حنين مئة من الإبل، وأربعين أوقية فضة. وهو أحد الأمراء الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لغزو الروم. عقده أبو بكر^(٤) ومشى معه تحت ركابه يسايره ويودّعه، ويوصيه^(٥) وما ذاك إلا لشرفه وكمال دينه. ولما فتحت دمشق أمره عمرُ عليها»

قال الذهبي: ويقال له: يزيد الخير، وعلى يده كان فتح قيسارية التي بالشام. وتوفي رحمه الله ورضي عنه في السنة الثامنة عشرة من الهجرة في طاعون عمواس الذي فشا في الشام.

وفي أعلام الزركلي في ترجمته مختصراً من مراجع كثيرة^(٦): أبو خالد من رجالات بني أمية شجاعة وحزماً.... استعمله النبي ﷺ على صدقات بني فراس (يعني تسلّم الزكاة) وكانوا أخواله.. وأمره أبو بكر على جيش..... ولما استخلف عمر ولّاه فلسطين، ثم ولي دمشق وخراجها وافتتح قيسارية.... «ومعنى أمره (بتشديد الميم) جعله أميراً (والياً).

(٢) سير أعلام النبلاء ١: ٣٢٩.

(٣) جمع لبيب: الفطن السريع الفهم.

(٤) عقده له رايته (راية جيشه) دلالة على توليه قيادته.

(٥) من أشهر وصايا الإسلام في آداب الحرب الشرعية. ولا نظير لها في حضارات الأمم. انظرها في: جمهرة خطب العرب - أحمد زكي صفوة - ١: ١٩٦ - ١٩٧. وفيها: «ولا تغدر ولا تجبن، ولا تقتلوا وليداً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأةً ولا تحرقوا نخلاً ولا تقطعوا شجرة مثمرة....».

(٦) الأعلام ٨: ١٨٤.

(٣)

ونلقى في هذه المدة (النصف الأول من القرن الهجري الأول) من تاريخ بلاد الشام وما بعدها، وفي دمشق وحمص، وغيرهما صحابياً جليلاً، كان أمير دمشق يزيد بن أبي سفيان السبب في انتقاله من المدينة المنورة إلى الديار الشامية. ولذلك خبر سيحيى في موضعه من البحث. وكان استقدمه لغرض تعليمي تثقيفي بحت. وكان لمجيئه، وائتلافه مع البلاد وأهلها وجهوده المتفانية، وأسلوبه الرائع في التدريس والتلقين والتعليم والتفهم وتدريب الذوق... إلخ أثر بالغ الأهمية في هذا الحضور العلمي، الثقافي الكبير في بلاد الشام كما سألين. أبو الدرداء - وهي كنيته التي غلبت على اسمه - هو عويمر (ويقال فيه، وكان ينادى أيضاً بعامر) بن يزيد بن قيس الأنصاري الخزرجي.

وهو سيد القراء بدمشق وحظي من رسول الله ﷺ بلقب حكيم الأمة. وقد روى أحاديث عن رسول الله ﷺ وهو معدود في تلاميذه. أسلم يوم بدر، وأبلى يوم أحد بلاء حسناً، وقال فيه النبي الكريم في ذلك اليوم: نِعَمَ الفَارِسُ عويمر، وقال: حكيم أمتي عويمر^(٧).

وقال الذهبي في ترجمته: هو معدودٌ فيمن تلا على النبي ﷺ، ولم يبلغنا أنه قرأ على غيره. وهو معدود فيمن جمع القرآن في حياة النبي ﷺ. وتصدر للإقراء بدمشق في خلافة عثمان رضي الله عنه، وقبل ذلك». والصواب أنه تصدر للإقراء من أيام عمر رضي الله عنه كما سألين.

وكان أبو الدرداء قبل الإسلام تاجراً، فلما أسلم حاول أن يجمع العبادة والتجارة فلم يجتمعا له، (استصعب أن يقسم وقته وخاطره بينهما)، فأثر العبادة،

(٧) سير أعلام النبلاء ٢: ٣٣٥.

والتفت إلى التعليم والإقراء والتثقيف والإرشاد، فكان له في ذلك سببٌ وفضل. ونحن نسجل ذلك في هذا البحث باسمه: تقديراً لعلمه وأثره فيما تلا من السنين والعصور. ونضع البحث بين يدي المشتغلين بتاريخ التربية، وبالتربية العربية الإسلامية، وأثر بلاد الشام في الفكر التربوي.

وفي تحلية أبي الدرداء عبارات كثيرة تجدُّ فيها (للعلم) و(العقل) تردداً وإعادةً مرة بعد أخرى. وكان الصحابة يقولون: أرْحَمْنَا بنا أبو بكر وأنطقنا بالحقِّ عمر، وأمِيننا أبو عبيدة، وأعلَمنا بالحرام والحلال مُعَاذ، وأقرؤنا أباي، ورجلٌ عنده علم: ابن مسعود. وتبعهم عويمر (أبو الدرداء) بالعقل^(٨). وقال ابن إسحاق صاحب السيرة المشهورة: «كان الصحابة يقولون: أتَّبِعْنَا للعلم والعمل. أبو الدرداء»^(٩).

وفي تاريخ دمشق لابن عساكر بإسناد ذكره: لما حَضرت معاذاً^(١٠) الوفاة قالوا: أوْصنا، فقال: العلم والإيمانُ مكانهما، مَنْ ابتغاهما وجدَّهما، (قالها ثلاثاً) فالتمسوا (اطلبوا) العلم عند أربعة:

- عند عويمر أبي الدرداء، وسلمان، وابن مسعود، وعبد الله بن سلام، الذي كان يهودياً فأسلم.

- وعن ابن مسعود رضي الله عنه: علماء الناس (يعني في زمانه) ثلاثة: واحدٌ بالعراق، وآخر بالشام يعني أبا الدرداء، وهو يحتاج إلى الذي بالعراق، يعني نفسه؛ وهما يحتاجان إلى الذي بالمدينة؛ يعني علياً رضي الله عنه^(١١).

(٨) سير أعلام النبلاء ٢: ٣٤١.

(٩) المصدر السابق.

(١٠) مختصر تاريخ ابن عساكر ١٣/٣٧٢/٢ والخبر في سير أعلام النبلاء ٢: ٣٤٢.

(١١) سير أعلام النبلاء ٢: ٣٤٣.

- وكان ابن عمر رضي الله عنه يقول: حدثونا عن العاقلين، فيقال: من العاقلان؟ فيقول: معاذ، وأبو الدرداء^(١٢).

قلت: سيكون لهذين الصحابيين الجليلين أثرٌ في التعليم والتثقيف في بلاد الشام مع الثالث: عبادة بن الصامت رضي الله عنه. وعن مسروق بن الأجدع (وهو تابعي ثقة توفي ٦٣ هـ) قال: شامت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدت علمهم انتهى إلى: عمر، وعلي، وعبد الله، ومعاذ، وأبي الدرداء، وزيد بن ثابت.

- ومعنى شامت فلاناً: قاربته وعرفت ما عنده بالاختبار والكشف. ونضرب مثلاً من شيع شهرة أبي الدرداء وحفظه لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعنايته بالعلم من خير مشهور نسوقه في هذا الموضوع: في المجلس السابع والستين من كتاب: المجلس الناصح الكافي.... للنهرواني^(١٣) خبر فيه حديث نبوي، رواه أبو الدرداء، نسوقه كما جاء لصلته بموضوع البحث.

روى القاضي أبو الفرج النهرواني بإسنادٍ ذكره قال: قدم رجل من المدينة إلى أبي الدرداء وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك يا أخي؟ قال: حديث بلغني أنك تحدّث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال (أبو الدرداء):

- أما جئت لحاجة؟ (يعني لحاجة أخرى غير طلب الحديث)،
- قال: لا!

- قال: أما قدمت لتجارة؟

(١٢) السابق. والمقصود: معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(١٣) المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ٣: ١٤٩.

- قال ما جئتُ إلا في طلب هذا الحديث !
 - قال: فَإِنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغِي بِهِ علماً سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِن الملائكةَ لتضعُ أجْنحتَها إرضاءً لطالب العلم، وَإِن العالمَ لِيستغفرَ له مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمِن فِي الأَرْضِ حَتَّى الحيتانِ فِي المَاءِ، وَإِنَّ فَضَلَ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ»^(٤) وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرِثَةَ الأنبياءِ، وَإِنَّ الأنبياءَ لَمْ يورثوا دِينَاراً وَلَا درهماً، وَإِنها أورثوا العلمَ؛ فَمَنْ أَخَذَهُ فَقَدْ أَخَذَ بِحِظِّ وَافِرٍ^(٥) انتهى.

قال القاضي أبو الفرج: هذا خبرٌ قد كتبناه عن عدد من الشيوخ، وروينا في معناه عن النبي ﷺ، وأئمة العلماء من السلف والخلف....

(٤)

تكليف أبي الدرداء:

حين صار يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه والياً أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب يزيد إليه: إِنَّ أهل الشام قد كثروا، وملؤوا المدائن، واحتاجوا إلى مَنْ يَعْلَمُهم القرآن ويفقَّهم، فأعني برجال يعلمونهم. فدعا عمر رضي الله عنه الخمسة الذين جمعوا القرآن وهم: مُعَاذُ وَعُبَادَةُ بن الصامت وأبو الدرداء، وأبي، وأبو أيوب، فقال: إِنَّ إخوانكم قد استعانوني مَنْ يَعْلَمُهم القرآن

(١٤) والحديث في مسند الإمام أحمد ٥: ١٩٦.

وقوله ﷺ: «كفضل القمر» أي في فائدته لأهل الأرض، وخصوصاً في نوره الذي لا

يصل إلى الأرض من سائر الكواكب والنجوم والأقمار مثله.

(١٥) المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ٣: ١٤٩.

ويفقههم في الدين، فأعينوني يرحمكم الله بثلاثة منكم إن أحببتكم..

فاجتمع رأيهم على أن يذهب الثلاثة الأكثر احتمالاً للسفر والاغتراب: معاذ، وعبادة^(١٦)، وأبو الدرداء. قال عمر: ابدؤوا بحمص فإنكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة: منهم مَنْ يَلْقَنُ، فإذا رأيتم ذلك، فَوَجَّهوا إليهم طائفةً من الناس فإذا رضيتم منهم، فليقم بها واحد، وليخرج واحد إلى دمشق، والآخر إلى فلسطين. وهذه عبقرية عمر رضي الله عنه في العلم والتربية والتعليم.

فهذه حُطَّةٌ عَمَلٍ رَسَمَهَا أمير المؤمنين لكيفية العمل، ولحركة الأساتذة في بلاد الشام. فَهَمَّ جميعاً سيبدوون من الشمال، فإذا انضبط انتقل واحد من الثلاثة إلى دمشق، والآخر إلى فلسطين، فتكون بلاد الشام قد صارت في ظل الحركة التعليمية المطلوبة جميعاً.

نفذ الثلاثة الحُطَّةَ وبدؤوا بحمص. وسارت الأمور في العملية التعليمية التربوية على ما رُسم. فلما صار وجود عبادة بن الصامت كافياً في حمص، انتقل أبو الدرداء إلى دمشق، ومُعَاذٌ إلى فلسطين^(١٧) (ثم انتقل عبادة بعد ذلك إلى فلسطين وبها كانت وفاته).

نزل أبو الدرداء إذن دمشق، وسكن منها في محلة باب البريد. وباب البريد اسمٌ لأحد أبواب المسجد الأموي الجامع، وبه سُمِّيت محلةٌ هناك. وكانت قديماً من أُنزِهِ المَوَاضِعِ. ووَليَ بها القضاء؛ وكان القاضي هو نائب الوالي إذا غاب. وكانت العملية التعليمية هي القضية التي شغلت أبا الدرداء وأخذت منه معظم الجهد والوقت؛ لأنه كان متفرغاً لذلك، ولا يعطّله عن ذلك أو عن جزء

(١٦) معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما.

(١٧) سير أعلام النبلاء ٢: ٣٤٤.

منه القيام بمهام قضائية في جانب من النهار. وقد رتب خطوات التعليم على الوجه الذي تم التداول فيه بين الثلاثة الفضلاء، الذين انتدبوا لهذه المهمة في مدينة الرسول الكريم وبين خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وزاد عليها التنظيم، وطريقة التدريس، وقسمة الدارسين. أو لنقل: منهجية العملية التعليمية بصفة عامة بتفاصيل نمر على ما ذكر منها.

(٥)

حلقات التدريس:

في أخبار أبي الدرداء أنه كان يصلي - وهو في المسجد الجامع - ثم يُقْرَأُ ويُقْرَأُ؛ حتى إذا أراد القيام (بعد انتهاء الدرس) قال لأصحابه: هل من وليمة أو عقيقة نشهدها^(١٨)؟ فإن قالوا: نعم؛ وإلا قال: اللهم إني أشهدك أي صائم. وهو الذي سنَّ هذه الحلق للقرءة.

ولهذا الخبر تنمة نجدتها في مكان آخر من ترجمته توضح هذا الخبر الإجمالي. وفيه: أن الذين في حلقة أبي الدرداء كانوا أزيد من ألف رجل. ولكل عشرة منهم ملقن. وكان أبو الدرداء يطوف عليهم قائماً؛ فإذا أحكم الرجل منهم، تحوّل إلى أبي الدرداء، يعني يعرض عليه. والمراد بالعرض مرور الدارسين على أبي الدرداء واحداً واحداً.

فالعدد الذي كان يرتاد مجلس أبي الدرداء في الجامع الأموي بدمشق يزيد

(١٨) يعني كان يحضر دعوات مريديه وتلاميذه حين تُصنع إسعافاً لهم، وخطلاً لنفسه بهم، وتقليداً للآثار الماثورة في مثل هذه الأحوال. والوليمة: كل طعام صنع لعرسٍ (ولغيره). والعقيقة: الذبيحة التي تذبح عن المولود يوم سبوعه عند حلق شعره.

على الألف. وطبيعة التعليم، وخاصة في القرآن الكريم والفقهاء الإسلاميين، وما يشاكل ذلك تقتضي أن يكون عدد المتلقين على الشيخ من المبتدئين (أو المتوسطين) محددًا لضمان الفائدة.

(١) ولهذا فإنه اعتنى بتخريج عدد كافٍ من الطلبة المتفوقين الذين يتمتعون بالذكاء، وسُرعة الاستجابة، والحفظ؛ فيدربهم، ويعلمهم كيف يُدرَّبون المبتدئين.

(٢) وهكذا يُتدب من هؤلاء الملقين كما كانوا يُسمَّون واحدًا لكل عشرة جُدد، وهؤلاء المتدربون تشبه حالهم حال (المعيدين) كما نُسمِّيهم اليوم، أو حال: مُعيد الحلقة كما كان يُدعى في عزِّ ازدهار التربية أيام تقدم العلوم والآداب في الدولة الإسلامية.

(٣) ثم يكون للمعلم - المحاضر - الأستاذ أبي الدرداء عمَلاَن اثنان واضحان:

- أحدهما: الطَّواف على أولئك (المعيدين) وهم يعلمون المبتدئين مراقبًا، ومتابعًا وموضِّحًا.

- والثاني: استقبال الذين نجحوا في المرحلة الأولى تحت يد المعيين، ليراجع أبو الدرداء معلوماتهم وإتقانهم، ويسدّد ما قد يكونون وقعوا فيه من خطأ، ويستدرِّك التقصير.....

(٤) فإذا ما اطمأنَّ أبو الدرداء إلى أنَّ تحصيل المستجدَّ صار كافيًا وأنه يستطيع أن يتابع على المنهج، أشعره بذلك، ليحيي دور غيره. وما كان مخرَّجُه هذا يمنع من عودته للمذاكرة، وطلب وجوه أخرى من التعليم والثقافة.

٥) ولا شك في أن الدارس لو وصل إليه (بعد تعليم المعيد) دون أن تكتمل أدواته ومعارفه ومهاراته لأعطي فرصة أخرى ليكون تخرجه بعد ذلك صحيحاً.

إنّ هذه الطريقة المبتكرة لتلقي الطلبة الدارسين، واستيعاب عددهم الكبير دون جَور على المستوى العلمي، وترتيب نظام (الحلقة) للتدريس، وترتيب المتدرّبين المُساعدين (المُعَيدِين)، هي طريقة مُجَدِّية، تؤدّي إلى سلامة العملية التعليمية، ونجاح طلابها عملياً، وسرعة إنجاز المهامّ مع ضمان الجودة. وهي طريقة جديرة أن تُنسب إلى أبي الدرداء، كما قال القدماء، وأنّ تسجّل له علامة بارزة في حركة التربية والتعليم التي كانت ما تزال وليدة في بلاد الشام؛ وفي سائر البلاد الإسلامية، ولعل دمشق كانت الأسبق في هذا الجانب العلمي، التعليمي، التثقيفي، التربوي.

(٦)

في صفات المعلم (الأستاذ) الناجم:

دأبت لجان انتقاء المدرّسين في العصر الحاضر في المقابلات التي يخضع لها المرشحون للتدريس، واستنتاجاً من البيانات التي تقدّم سلفاً من كلّ مرشح (استبانات خاصّة)، على أن تنظر في أمور المرشح من جهات متعدّدة، في مقدمتها: استعداده العلمي، وقدرته على تناول المادّة (الموادّ) التي يدرّسها، وصفاته العامّة المكتملة لذلك. ويدخل في ذلك متابعته المُستمرّة، وقدرته على الإيضاح والإبانة.

أ) وقد تواترت أقوال معاصري أبي الدرداء على: غزارة علمه وثاقب

فهمه، وصبره على مهمّة التعليم والتفهم، وتفجير الطاقات الكامنة في طلابه والمستفيدين منه.

- ومما قيل فيه: «كان أبو الدرداء مَنَّ أوتوا العلم»^(١٩).
- و: «إنَّ أبا الدرداء من العلماء الفقهاء الذين يشفون من الداء»^(٢٠).
- وقال أبو ذر رضي الله عنه لأبي الدرداء: «ما حَمَلت ورقاء ولا أَظَلت خضراء أعلم منك يا أبا الدرداء!»
الورقاء: الأرض، من الورقة وهي الشَّجرة.
والخضراء: هي السَّماء: يقال فيها زرقاء، وخضراء).
 والمعنى: ما في الدنيا - في وقته وزمانه - أعلم منك يا أبا الدرداء فهو الأستاذ المهياً لصنعتة بالعلم والخبرة والدَّاب والمتابعة، وحُبَّ المهمة^(٢١) التي وقف حياته عليها.

ب) كثرت أخباره وأقواله التي تُرغَّب في العلم وتحثُّ عليه؛ ومن أقواله الماثورة عنه: «مالي أرى علماءكم يذهبون، وجهالكم لا يتعلمون؟! تعلّموا فإنَّ العالم والمتعلم شريكان في الأجر»^(٢٢).

ج) وكان أبو الدرداء يلقي دروسه، ويلقى طلابه، وهو مستعد للقائهم: في علمه، وفي صبره على تعب مهنة التعليم، وفي لقاء طلبته والدارسين عنده ببشاشة وإقبال.

(١٩) سير أعلام النبلاء ٢: ٣٤٦.

(٢٠) المصدر السابق. والشفاء هنا معنوي، يشفي من الجهل، أو يزيد الطالب والدارس والسائل في علمه.

(٢١) أقول المهمة، فقد كانت تكليفاً وتطوعاً معاً. الآن نقول مهنة: لأسباب كثيرة.

(٢٢) السير ٢: ٣٤٧.

- في خبر عن أم الدرداء قالت: كان أبو الدرداء لا يُحدِّثُ بحديثٍ إلا تَبَسَّم، فقلتُ: إني أخافُ أن يَحْمَقَكَ الناسُ! فقال: كان رسول الله ﷺ لا يحدِّثُ بحديثٍ إلا تَبَسَّم^(٢٣).

فهنا، الاستئناس بالقدوة، بالنبي الكريم ﷺ، واتباع هديته، والاستفادة من ذلك للتقريب بين المعلم والدارس، أو بين السائل في العلم والمسؤول.

(د) وكان يحرص على أن يُقدِّم ما يعرف للناس، لا يُخفي من ذلك شيئاً. وقد صار هذا من تقاليد الثقافة العربية الإسلامية في الأعصر التالية. وقد روي عنه أنه قال^(٢٤): «سَلُونِي، فوالله لئن فقدتُموني لتفقدنَّ رجلاً عظيماً من أمة محمد ﷺ»

وهذا الكلام تبرئة للذمة أمام الله تعالى، وعند الناس، وليس فيه فخرٌ أو كبرياء. فقد كان في حياته الرجل المتواضع المتفاني في بذل العلم والرواية، وإسعاف السائلين في العلم والدارسين له.

(هـ) سنَّ أبو الدرداء للمعلمين بعده الصبر على المتعلم، وطول النفس في إيصال المقصّر عن زملائه ليلحق بهم. وفي أقواله في عملية التعليم: «العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم»^(٢٥) وهي تفيد حمل النفس على ذلك حتى يؤتي التعليم ثمراته، وينجح الطالب في الوصول إلى المراد. وقاس العلم والتعلم على الحلم والتحلّم، لأنه يحتاج إلى مجاهدة للنفس ومثابرة ومطاولة في الوقت.

(٢٣) نفسه ٢: ٣٥١.

(٢٤) سير أعلام النبلاء ٢: ٣٤٢.

(٢٥) مختصر ابن عساكر ٢٠: ٣٦.

(٧)

غائية العلم:

من سمات العلم في الحضارة الإسلامية منذ مراحلها الأولى التي نرصدها مع أكبر ممثلي التعليم في عصر الصحابة رضي الله عنهم أن له غاية مزدوجة: غاية أخروية وغاية دنيوية.

■ أما الأخروية: فهي اكتسابُ مرضاة الله تعالى الذي كلف الإنسان طلبَ العلم وحشد نتائجه لخدمة الإنسان (طبعاً، وليس لضره حتماً) وقد ثبت من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها رواه الترمذي من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم». وفي رواية عن أبي برزة في الترمذي «وعن علمه ما فعل فيه»^(٢٦) ويدخل في هذا امثالُ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اطلبوا العلم.....»

■ وأما الدنيوية: فالانتفاع بالعلم، وتحسين أسباب المعاش، من جلب المنافع المشروعة، ودفع المضار، واكتشاف ما في الدنيا التي سخرها الله تعالى للإنسان، مما يتراكم مع الزمن وينفع الناس. والمقصدان الأخروي والدنيوي من معالم حضارتنا العالمية والإنسانية. وانظر قوله صلى الله عليه وسلم: «الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله»^(٢٧). ونحن نفاضل الأمم بهذا العلم: العالمي، والإنساني،

(٢٦) الجامع الكبير ٣: ٣٢٢.

(٢٧) رواه أبو يعلى والبخاري عن أنس رضي الله عنه، والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه:

الجامع الكبير ١: ١٠٥.

والأخلاقي؛ الذي يفتقدونه (وانظر حال البشر بعد الحربين الكبيرتين في القرن الماضي وكيف استفادوا من علمهم في قتل الناس، وتحطيم المدنيات!...).

فالأخذ بأسباب التعلّم يجلب الفائدة للمتعلم في الدنيا بما يتيح له من فرص العمل، وما يفتح له من أبواب التواصل مع الناس، وما يرفع من درجته الاجتماعية، وما يصقل شخصيته ويحسن منها....

والعلم أيضاً، بمعرفته المؤدية إلى تغير السلوك بما يناسبه، يفتح للمتعلم أبواب السعادة الأخروية، وقد قال أبو الدرداء: «أخوف ما أخاف إذا وُقِفْتُ للحساب أن يقال لي: ما عملت بما علمت؟»^(٢٨) فالعمل بالعلم يؤدي إلى الثواب، وعكسه يضع صاحبه تحت المساءلة....

(٨)

المعلم (الأستاذ) القدوة:

ونتخذ المثال من أبي الدرداء رضي الله عنه عند الكلام على المعلم القدوة، الذي يسير طوال حياته بين الناس، في أحواله المختلفة سيرة الأستاذ المعلم الذي يطابق سلوكه آراءه النظرية. وفي هذا تمام صفة المعلم، وكمال شخصيته: في ذاته من جهة، وفي نظرة الناس إليه من جهة ثانية.

- قال أبو الدرداء: ويل للذي لا يَعْلَمُ مرّةً، وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرّات»^(٢٩).

(٢٨) سير أعلام النبلاء ٢: ٣٤٧.

(٢٩) سير أعلام النبلاء ٢: ٣٤٧.

- وقال في نوع من التورّع، والتلوّم الذاتي - طلباً للكمال - «إني لأمرم بالأمر وما أفعله ولكن لعل الله يأجرني فيه»^(٣٠).

(٩)

التعلم المستمر (الاستزادة الدائمة) والتدريب المتواصل:

منهج أبي الدرداء: الاستزادة الدائمة من العلم، وكشف مغلقاته، والتدرّب المتواصل للإتقان من جهة وللإستعانة على تقديم الجديد النافع، وهو يشرب من المأثور: «اطلبوا العلم». وروي عن أبي الدرداء أنه قال: «.. ولو يشاء العالم منكم لازداد علماً إلى علمه. لقد خشيتُ أن تكونوا شباعاً من الطعام، جياعاً من العلم. اللهم إني أعودُ بك من أن أبقى في قومٍ إن ذكرتُ الله لم يعينوني، وإن نسيت لم يذكروني، وإن تركتهم أحزنوني»^(٣١).

فإذا كان الطعام ضرورةً بدنية لاستمرار الحياة، فإن العلم - والاستزادة المستمرة منه - ضرورة فكرية لاستمرار حقيقة الحياة.

وهذه ملاحظة بالغة الأهمية نضعها في الاعتبار حين نعالج قضية بطء حركة العلم والفكر والثقافة التدريجي الذي أدّى بالأمة إلى التخلف. ولقد طال ذلك التخلف!

إنها منهجية عبقرية متقدمة عند رواد التربية والتعليم ممثلةً في شخصية أكبر معلمي تلك المدّة: أبي الدرداء رضي الله عنه.

وفي أقواله على هذا الملمح: «لا تكونُ عالماً حتى تكونَ متعلماً، ولا تكونُ

(٣٠) نفسه: ٢: ٣٤٥.

(٣١) مختصر ابن عساکر ٢٠: ٣٧.

بالعلم عالماً حتى تكونَ به عاملاً»^(٣٢).

وواضح أن المراد من عبارة: «لا تكون عالماً حتى تكون متعلماً» استمرار العالم في بحثه وقراءاته ومتابعاته وعمق تفكيره.... فالعمليتان متداخلتان....

(١٠)

الفكر الموسوعي^(٣٣):

حتى في عصر التخصص الدقيق يبرز بين العلماء من هو قادر على الإبداع في أكثر من علم أو فن أو جانب من جوانب المعرفة. ويكون هؤلاء من النخبة، ويكون لإبداعهم طعم آخر لا اختلاط تلك العلوم والفنون في تناسق، وتداخل وانسجام. وإذا كانت بداية تعليم أبي الدرداء رضي الله عنه ورفيقه الصحابيَّين الجليلين: معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما في العلوم الشرعية من القرآن والفقه والحديث، فإن الدائرة توسعت بطبيعة الحال. وكان لأبي الدرداء نصيب مهم في ذلك التوسع، و«التطور» كما يقال، أيضاً. وملتقط في سيرة أبي الدرداء خبراً ذا أهمية كبيرة، فقد روت تراجمه عمّن قال: «رأيت أبا الدرداء دخل مسجد النبي ﷺ ومعه من الأتباع مثل السلطان:

فمن سائل عن فريضة؛

ومن سائل عن حساب؛

وسائل عن حديث؛

وسائل عن معضلة؛

وسائل عن شعر»^(٣٤).

(٣٢) المصدر السابق ٢٠: ٢٢.

(٣٣) نقبل استعمال كلمة (موسوعي) لهذا المقصد؛ و(موسوعة) بدلاً من معلّمة.

(٣٤) سير أعلام النبلاء ٢: ٣٤٧.

لقد توسّعت خُطة أبي الدرداء التّعليمية، وانتقلت من علوم القرآن والفقه إلى علوم وفنونٍ أخرى مجاورة (كاللّغة والأدب) وعلوم ملازمة (كالْحساب وغيره من علوم الحياة).

وكأنّ المسؤولة العلمية دفعت بأبي الدرداء إلى إتقان علم الطبّ. وهذا يفهم من خبر في (ابن عساكر) في رسالة كتب بها سلمان رضي الله عنه إلى أبي الدرداء: «وقد بلغني أنك جعلت طبيباً يداوي؛ فإن كنت تُبرئ فَنَعَمْ ذلك، وإن كنت متطبِّباً فاحذر أن تقتل إنساناً فتدخل النار»^(٣٥). فهذا من التناصح الصّوري بين المسلمين^(٣٦).

ولم أجد خبراً آخر يعزّز هذا المنقول عن رسالة سلمان رضي الله عنه. ولكنّ العبرة المستخلصة هي في محاولة تعلّم كل ما يلزم الإنسان تعلّمه ممّا يدخل في إطار عمله، على شرط الإتيان.

وقد نبّه أستاذنا الدكتور شوقي ضيف رحمه الله على التوسع التلقائي الذي نتج عن العناية بالقرآن الكريم منذ العصور الأولى وقال^(٣٧):

«وبمرّ الزّمن أخذت تتكوّن حوله علومٌ كثيرةٌ. ولا نبالغ إذا قلنا: إن كل ما كسبه العرب من معارف إنما كان بفضل ما غرس فيهم القرآن من حبّ العلم... وأخذوا يشتقّون منه مباشرة علوماً كثيرة كعلم القراءات... وعلم

(٣٥) مختصر ابن عساكر ٢٠: ٢٠ - ٢١، وقوله: متطبِّباً: يعني يتعاطى الطبّ وهو لا يُتقنه، أو لا يعرفه.

(٣٦) وقد وضع العرب والمسلمون قواعد لمهنة الطبّ بفروعها المختلفة، واستفادوا من قوانين أبقراط واليونان، ووجّهوا ذلك وجهة شرعية لضبط المهنة علمياً وأخلاقياً ولحمل المسؤولية (ينظر في كتب الفقه، وكتب الحسبة مثل (نهاية الرّتبة في طلب الحسبة للشيزري: ٩٧ - ١٠٢ ومعلم القربة في أحكام الحسبة لابن الإخوة: ٢٥٣ - ٢٥٩).

(٣٧) العصر الإسلامي: ٣٢ وما بعدها.

أسباب النزول، وعلم نحوه وإعرابه، وعلم خاصه وعامه، ممّا هيأ لظهور علم البلاغة. ولا نبالغ إذا قلنا إن العلوم الإسلامية كلّها إنما قامت لخدمته، فهو الذي هيأ بقوة نهضة العرب العلميّة.

وهذا الكلام دقيق. ونقول: إن شخصيّة أبي الدرداء التي نكشف عن إبداعاتها العلميّة والتعليمية والتربوية بمنهج واضح، هي مثال متقدّم (مبكر) لهذا التوسّع العلمي، والانبثاق أولاً من القرآن وعلومه، ولاستبانة المنهج العربيّ الإسلاميّ في العلم، والتعلم، والتربية، وتسخير ذلك كله لأبناء الأمة وللناس في أنحاء الدنيا.

وفي خبر طريف، قيل لأبي الدرداء: كل أصحابك قد قال الشعر غيرك، فأطرق طويلاً ثم قال:

يريدُ العَبْدُ أَنْ يُعْطَى مِنْهُ
وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا مَا أَرَادَا

يقول العبدُ فائدتي ومالي
وتقوى الله أفضل ما استفاد!

فقالوا: لقد أحسنت فزد! قال: لا! إنّما قلتُ (يعني هذا الشعر) حين قلتُ
إن أصحابي كلّهم قد قالوا. كرهُتُ أن يعملوا عملاً لا أعمله. وليس الشعرُ من
شأني!...»^(٣٨).

فهذا يتبع استكمال أدوات المعلم الواسع الأفق، واستطراد وجوه اهتمامه
إلى اتجاهات شتى.

(١١)

تنمية الذوق:

كان في جملة تعليم أبي الدرداء رضي الله عنه الوصول بالدارس إلى الذوق

(٣٨) مختصر ابن عساکر ٢٠: ٣٩ يقول: لست شاعراً؛ ولكنّ النظم حين الاقتضاء لا يصعب علي!

اللغوي والأدبي المرهف من جهتين:

أ) البعد عن سلبيات اللسان، بالامتناع عن الشرثرة، وعن فضول الكلام، كما قيل: من كَثُرَ لَعَطُهُ كَثُرَ غَلَطُهُ؛ وكان يعيب في الرجل (الإنسان عامة) ثلاث خصال: العُجب (التكبر)، وكثرة المنطق (الكلام) في ما لا يعنيه، وأن يجد على الناس (يؤاخذهم) مما يأتي (بعمل) مثله! ^(٣٩).

ب) الأخذ بموجبات تنمية الذوق نظرياً وتطبيقياً. فقد روي عن أبي الدرداء قوله ^(٤٠):

«ولولا ثلاث ما أحببتُ البقاء: ساعة ظمأ الهواجر، والسَّجود في الليل، ومجالس أقوام ينتقون جيد الكلام كما يُنتقى أطيبُ الثمر».

وكان أبو الدرداء فصيحاً بليغاً، ومن هنا فقد حرص على توصيل هذه المزية إلى الدارسين عنده: بما يختار لهم من نصوص، وبما يحدثهم هو من حديث يختار ألفاظه وعباراته. وقد أورد ابن عساكر في ترجمة أبي الدرداء عن معاوية بن قرة ^(٤١)، قال: «اشتكى أبو الدرداء (مَرَضَ) فدخل عليه أصحابه فقالوا له: يا أبا الدرداء ما تشكي؟ قال: أشكي ذنوبي! قالوا فما تشتهي؟ قال: أشتهي الجنة، قالوا: أفلا ندعو لك طبيباً؟ قال: هو الذي أضجعني (أمرضني فلازمت الفراش)».

وفي هذا النص ما صار يُعرَف في علم البلاغة بأسلوب الحكيم أو الأسلوب الحكيم ^(٤٢).

(٣٩) مختصر ابن عساكر ٢٠: ٣٦.

(٤٠) سير أعلام النبلاء ٢: ٣٤٩.

(٤١) مختصر ابن عساكر ٢٠: ٤٢.

(٤٢) وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب، بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد. وضرب البلاغيون مثلاً لهذا الفن من القرآن الكريم (يسألونك عن الأهلة قل =

- وقال: لولا ثلاثٌ خلالٍ لصلح أمرُ الناس: شُحُّ مطاع، وهوى مُتَّبِع، وإعجابُ المرء بنفسه.
- وقال ذروة الإيمان أربع خصال: الصبر في الحُكم، والرِّضا بالقَدْر، والإخلاص بالتوكل، والاستسلام للربِّ جلَّ ثناؤه.
- وقال: يا رَبِّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مُهين، ويا رَبِّ شهوةٍ ساعةٍ قد أورثتُ صاحبِها حزنًا طويلاً!
- وقال: أهلُ الأموال يأكلون وتَأْكُل، ويشربون ونشرب، ويلبسون ونبلس، ويركبون ونركب، ولهم فضولُ أموالٍ ينظرونَ إليها، وننظرُ إليها معهم. عليهم حسابُها ونحن منها بُرَاء.
- وقال: الحمد لله الذي جعل الأغنياء يتمنون أنهم مثلنا عند الموت، ولا نتمنى أنما مثلهم عند الموت!
- ومن أقواله المتصلة بالآداب العامة وفيها جانبُ تربويٍّ: «تعلموا الصَّمْت كما يُتعلَّم الكلام، فإنَّ الصَّمْت حكم عظيم، وكُنْ إلى أن تسمعَ أحرصَ منك إلى أن تتكلَّم. ولا تتكلَّم في شيء لا يعينك، ولا تكن مضحاكاً من غير عَجَب (شيء يدعو إلى الضحك)، ولا مشاءً إلى غير أَرْب (يعني إلى غير حاجة)»^(٤٣).

(١٢)

جهد فردي... جهد جماعي.. وأثر المرأة في التعليم...

يُذكر مع أبي الدرداء في مهمته التعليميّة التثقيفيّة زوجته أمّ الدرداء

= هي مواقيت للناس والحجّ) [البقرة: ١٨٩] وللکلام تفصیل انظره مثلاً في (أنوار الربيع في

أنواع البديع للمدني: (ابن معصوم) ٢: ٢١٣.

(٤٣) من ترجمته في مختصر ابن عساكر.

الصُّغرى؛ وكان ابنه (بلال) في العلماء الرواة^(٤٤)، ولزوجته أم الدرداء الكبرى صحبة^(٤٥)، ويُذكر في التراجم أخباراً لابنته (درداء)^(٤٦) وزوجها الذي مات عنه: صفوان بن عبد الله الجمحي.

وقد كانت «مدرسة» أبي الدرداء مستمرة مع زوجته أم الدرداء الصُّغرى^(٤٧) في حياته، وبعد وفاته. قلت (مدرسة) وهي في الحقيقة مراحل متدرجة من البدايات إلى المطالب العلمية العالية المتاحة آنذاك.

وكانت أم الدرداء قد تلقت العلم على أبي الدرداء. وكانت تُعلم مثله. فعن عبد ربه بن سليمان بن عمير بن زيتون قال:

«كُتبت لي أم الدرداء في لوحتي في ما تعلّمني: تعلّموا الحكمة صغاراً تعملوا بها كباراً، وإن كلّ زارع حاصد، ما زرع من خيرٍ أو شرٍ».

- واللّوحة، واللّوح: ما يُكتب عليه، لتعليم الصغار.

- ولم تكن تُعنى بتعليم الصغار فحسب، ولكنها كانت، وقد بلغت من السنّ والعلم ما يُتيح لها ذلك تُعنى بلقاء الكبار؛ في مجالس للعلم، والمذاكرة، ففي خبر آخر، في ترجمتها^(٤٨) عن عون بن عبد الله: جلسنا إلى أم الدرداء فقلنا لها: أمْلئناكِ (أدخلنا عليك المِلل

(٤٤) ترجم له في سير أعلام النبلاء ٤: ٢٨٥ وقال: روى الحديث عن أبيه، وعن أم الدرداء وروى عن جماعة سَمّاهم . ولقبه البخاري بأمر الشام . وكان قد تولى القضاء بعد النعمان ابن بشير رضي الله عنه، وكانت وفاته سنة ٩٣هـ.

(٤٥) اسمها خيرية بنت أبي حذرد الأسلمية، لها صحبة، وروت عن رسول الله ﷺ. وتوفيت في حياة أبي الدرداء (مختصر ابن عساكر ٨: ١٠٧)

(٤٦) دُرْداء بنت أبي الدرداء سَمعت أباها . توفيت، وكان زوجها صفوان بن عبد الله الجمحي.

(٤٧) هي هجيمة (أو جهيمة) بنت حُيي الأوصابية . كانت زاهدة فقيهة روت عن أبي الدرداء.

(٤٨) مختصر ابن عساكر ٢٧: ١٧٦.

لطول الحديث) فقالت: أملتموني؟! لقد طلبتُ العبادة في كل شيء، فما أصبْتُ شيئاً أشفى من مجالسة العلماء، ومذاكرتهم. ثم احْتَبْتُ^(٤٩)، وأمرتُ رجلاً أن يقرأ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَنْذِكُرُونَ﴾ [القصص: ٥١]. وفي كتاب الوجيز^(٥٠) أي: إذ أنزلنا على رسولنا القرآن موصولاً بعضه ببعض آياتٍ بعد آيات، وسوراً بعد سُور، لتتصل العِظَاتُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْذِكُرُونَ﴾ أي (والخطاب للمشركين) فيعتنقون الدين الجديد.

وكانت أم الدرداء تُدعى للتعليم والإرشاد فُجِيب. وفي ترجمتها خبر فيه أن عبد الملك بن مروان - وهو خليفة - دعاها فكانت عنده مع أهل بيته في خاصّ سكنهم. وفي إحدى الليالي سمعت أم الدرداء عبد الملك يلعنُ أحداً. فلما أصبح سألته عن ذلك فقال: إنه الخادم أبطأ عني، فقالت له: سمعت أبا الدرداء يقول: قال ﷺ: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة». وقد ورد الحديث في ترجمة أبي الدرداء في سياق آخر^(٥١).

- وقد وصفت أم الدرداء بـ(العالمة) كما ورد في سير أعلام النبلاء ٢: ٣٣٦.
- وفي ترجمة أبي الدرداء، وترجمة أم الدرداء الصغرى، أخبار كثيرة عن المواعظ، والإرشادات، والآراء، والتنبيهات الرفيقة التي تكمل

(٤٩) احتبى: جلس الخبوة: وهو نوعٌ من الجلوس: يضم الجالس رجله بيديه ويستند إلى شيء وراءه.

(٥٠) الوجيز في تفسير القرآن الكريم: د. شوقي ضيف: ٦٤٣ - ٦٤٤.

(٥١) في ترجمتها أخبار عن عناية عبد الملك بن مروان (الخليفة الأموي الخامس) بأم الدرداء الصغرى، ونلقاها في بيت المقدس محوطة برعاية منه، وقد أثرت فيها السن، وهي تتكى عليه لتدخل المسجد الأقصى.

الصورة الرائعة والبارعة لمن يتصدى لمهمة التعليم، والتثقيف، والإرشاد والتوجيه، وتنشئة جيل يُتقن علوم العربية وعلوم القرآن، وينتقل من ذلك إلى العلوم والآداب الأخرى، بما يكفل رعاية حركة علمية جديدة ناشطة متطورة، تؤدي إلى تقدم علمي مطرد، لهذه الدولة الفتية التي تكون نفسها، وتثبت قيمها، وتضع برامجها الذاتية، وتخرج جيلاً يخطو خطوة إلى الأمام، ويمهد لخطوة جديدة لمن يأتي بعده.

- حركة علمية قائمة على منهجية متقنة، ووسائل تعليمية مبتكرة، وبرامج متنوعة.

- وهي حركة استمرت من أيام العصر النبوي، فالرّاشدي وصولاً إلى الأمويّ؛ وكان ما اعتمده أبو الدرداء، رضي الله عنه، ومن كان معه، وخصوصاً العنصر النسائي، من اللبّات الأساسية في الحركة التعليمية والعلمية، ومن بدايات التدريس الذي يصل إلى أعلى المستويات الجامعية.

- وهي حركة علمية تعليمية غائية، لها هدف، ولها غاية تؤدي إلى نشاط متجدد، وتقدم مطرد، وإلى تخريج جيل واعٍ وصياغة نسيج للأمة متماسك، وإلى ربط الدنيا بالآخرة.

- وهي حركة شاملة الذكور والإناث:

في تاريخ ابن عساكر عن أحمد بن حنبل^(٥٢)، وهو يذكر أمّ الدرداء

الصغرى في سياق كلام:

«وكانت أم الدرداء يتيمةً في حجر^(٥٣) أبي الدرداء، تختلف مع أبي الدرداء (تذهب معه) في بُرْنَسٍ تصليّ في صُفوف الرّجال، وتجلسُ في حَلَق (حَلَقَات تدرّيس) القرآن: تُعلّم القرآن حتّى قال أبو الدرداء يوماً: الحقي بصفوف النساء».

وهذا تصريحٌ واضح، وهو يفسّر، من هذا الوقت المبكّر جدًّا من نصف القرن الهجري الأوّل، اشتغال الرّجال والنّساء معاً في العلوم المختلفة الدينية والدنيوية، ولو وصلت إلينا أخبار النّساء في مجالات التعليم والآداب والعلوم لجاءنا علم كثير غزير.

وبعد:

فهذه صورةٌ مشرقة من بدايات تاريخ التربية والتعليم - بالمعنى الرّسمي للعبارة - في تاريخ الفكر العربيّ الإسلامي؛ استطعنا جمعها وقراءتها وتوضيح الموجز المجمل منها بالقرائن والإشارات الإضافية من جوانب أخرى مختلفة، وهي واضحةٌ الدلالة على ما ذهبنا إليه من انبعاث حركة التربية والتعليم والتثقيف في الدولة العربية الإسلامية الفتية ابتداءً من العشر الثاني (العقد الثاني) من القرن الهجري الأوّل في دمشق، وما يزال عود الحركة الفكرية العربية الإسلامية غضاً طريًّا.

ودرّسنا أبا الدرداء رضي الله عنه نموذجاً ومثلاً. وكانت أخباره وهي محدودةٌ على كل حال بطاقات كتب التراجم والأخبار وتلويدها واستيعابها. لقد بدأت الحركة التربوية التعليمية التثقيفية منطلقة من القرآن الكريم. لكنها ما لبثت أن توسّعت على يد أبي الدرداء نفسه إلى أن شملت الحديث والآداب

(٥٣) في كفه ورعايته.

والعلوم (المُتاحة لتلك المدة ولفئات المتعلمين آنذاك، ومناشط الحياة بالمعنى الحضاري العام).

وظهرت ملامح خصوصية التربية العربية الإسلامية من:

- عالميتها؛ (كونها جامعة شاملة صالحة للاقتباس من قبل الأمم الأخرى)؛
- وقصدها إلى الإنسان بالدرجة الأولى، فهو محطّ العناية الذي تُوجه له الأنظار والعناية الشاملة؛ فهي تربية إنسانية؛
- وشموليتها، فهي واسعة غير منغلقة؛
- وغايتها، فإن لها هدفاً واضحاً ذا جانبيين: في الدين والدنيا؛
- وابتكاريتها: بصنع برامج وفق مناهج واضحة لا تغفل عن خصوصية منطلقات الثقافة العربية الإسلامية؛
- وربطها العلم بالعمل بكل معاني هذه العبارة واتّساع مقاصدها؛
- ورعاية الدولة لها. لقد كان التعليم، كما وضح لنا بالمجان، وكان مُتاحاً للناس جميعاً دون استثناء؛
- واحتضان المساجد (قبل إنشاء المدارس) لحركة التعليم والتثقيف: إضافة إلى المجالس، والدور، والقصور؛ وانتقال المعلمين أنفسهم إلى مواقع مناسبة لذلك.
- واتساع خيمة التعليم والتثقيف والتدريب لكلا طرفي المجتمع: الرّجال والنساء دون أيّ تفریق.
- وظهور نواة المدرسة، والمعهد، والجامعة بالمعنى الواسع الدقيق من ذلك الزمان المبكر، في الدولة الإسلامية الصّاعدة: منذ العهد النبوي فالراشدي فالأموي. ■

المصادر والمراجع

- الأعلام، خير الدين الزركلي، بيروت: دار العلم للملايين ط ٩، ١٩٩٧.
- أنوار الربيع في أنواع البديع، ابن معصوم المدني، تحقيق شاكر هادي سُكر، النجف: مطبعة النعمان، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨ م.
- الجامع الكبير، السيوطي، (طبعة مصورة في بيروت) د.ت
- المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، النهرواني، تحقيق د. محمد موسى الخولي، بيروت: عالم الكتب، ١٤١٣هـ ١٩٩٣ م
- جمهرة خطيب العرب، أحمد زكي صفوة، القاهرة: مطبعة مصطفى الباب الحلبي.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٠١هـ ١٩٨١ م.
- العصر الإسلامي (من تاريخ الأدب العربي) د. شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٢.
- مختصر تاريخ ابن عساكر، دمشق: دار الفكر.
- مسند الإمام أحمد، مصورة المطبعة الميمنية ١٣١٣هـ
- معالم القرية في أحكام الحسبة لابن الإخوة، تحقيق محمد محمود شيان وصادق أحمد عيسى المطيعي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٦هـ ١٩٧٦.
- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، الشيزري، تحقيق السيّد الباز العُريني، القاهرة:

لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٥هـ ١٩٤٦ م.

- الوجيز في تفسير القرآن الكريم، د. شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف، مصر.

* * *

